سارة الغمري

سيدة الشرفة

يتراقص أمامها دخان القهوة الساخن ليغازل مشاعرها للحنين إلى الماضي، ومع أول رشفة من الكوب انهمر المطر ليعلن عن قدوم شتاء بارد يحاكي برودة قلبها الفارغ، خرجت إلى شرفتها لتنظر إلى هذا العالم الواسع وهو يحتضن الأمطار ويستقبلها بحفاوة من طال انتظار فرجه، لطالما حلمت أحلامًا كثيرة ولكن يبدو أن الأحلام خلقت فقط في صدورنا وعلينا تصديق أنها غير قابلة للتحقيق، فهذه كانت قناعتها عن الحياة، الطابق الحادي عشر لم يكن اختيارها بل اختيار من كان حبيبها يومًا، ولطالما أخبرته أن سور الشرفة يحتاج إلى ترميم، ولكن كعادته لم يهتم.

إنها سيدة الشرفة، هكذا كان يطلق عليها أبناء الحي دائما من كثرة وقوفها فيها، أما عن عالمها فقد كان شديد الحميمية المكسوة بنباتات الزينة المنسدلة من الشرفة في خفة ورشاقة وكأنها ترسم لوحة لغابة كثيفة من شدة غزارتها، تلك النباتات كانت يومًا بذورًا ترعاها مع ابنها الصغير والتي شهدت على نموه العام تلو الآخر حتى أصبح شابًا فتيًا، قرار الهجرة كان هو القرار الأفضل والنهائي بالنسبة له، وهي لم تشأ أن تتدخل في حياته فتركته يرحل في صمت مخلفًا وراءه فراغًا حاولت أن تشغله بمئات الصور التي التقطتها له وتلك الكاميرا التي أهداها لها ليلة سفره، والتي تحمل عطره الخاص وملمس أنامله الدافئة، أما عن النوم فلم تكن تعلم كم هو عاصٍ إلا إذا اتصل بها ليخبرها أنه بخير، وعدها أنه سيعود

إليها يومًا ما لتهاجر معه، لكن مازالت هي على موقفها، فهي لها عالمها الخاص، وهذا موطنها وهجرتها منه تعني مفارقتها الحياة.

لم تنسَ ذلك اليوم حينما سألها صغيرها بغضب "لماذا تزوجتِه؟ ولماذا تصرين على البقاء معه؟"

كان السؤال صادمًا، فكيف لطفل يبلغ العاشرة من العمر أن يتحدث هكذا عن والده؟! لم تكن تدري أن الطفل قد فطن لما حدث ولما يحدث من حوله، وأنها لم تكن الضحية الوحيدة لهذا الاختيار القاسي.

"أحببته حتى انطفأت يا ولدى".. بدموع ساخنة وبكبريائها المعتاد أجابت أخيرًا على هذا السؤال بعد خمسة عشر عامًا من طرحه.. كانت ليلة السفر لا تنسى، فقد باحت فيها بكل شيء كطفلة صغيرة بحاجة إلى الاحتواء.

"كان التصوير هوايتي المفضلة، حتى التقيت بوالد صديقتي الذي سألني كم تتقاضين على الصورة الواحدة؟" أكملت الحديث بدموع ساخنة حجبت مقلتيها تمامًا، وهي تمسك يد ابنها وعيناها على تلك الكاميرا هدية صغيرها لها مسترسلة في حديثها: "أدركت أنني يمكنني أن أربح مالا وفيرًا.. كان يريد فقط أن أصور له حفل زفاف ابنته الكبرى، وهي أخت صديقتي المقربة، في الحقيقة خجلت ورفضت ولكنه أصر على ذلك، وعلمت أنها فرصة لأدبر ما يكفي من المال لأخذ كورس التصوير من وراء أهلي، خفق قلبي بشدة لرؤيته في

حفل الزفاف، ذلك الشاب الوسيم طويل القامة ذو البذلة السوداء الأنيقة والحذاء اللامع الذي تشك عند رؤيته أنه قد لمس الأرض يوما، والنظرات الثابتة القوية والعيون السوداء مع اللون القمحي الجذاب والابتسامة الساحرة التي تكشف عن رجولة واحتواء معًا".

ثم لم أنتبه لهذا الدرج أمامي فسقطت وسقطت معي الكاميرا الخاصة بي وشرخت العدسة.. كان حادثا محرجًا ومؤلمًا أمام الحضور، ولكني هممت بالنهوض سريعًا، لكن فجأة رأيت شخصًا أمامي يمسك بالكاميرا مبتسمًا لي هذه الابتسامة الساحرة التي تكشف عن رجولة واحتواء، ثم همس لي: " تذكري دائمًا في كل مرة تسقطين فيها ستجدينني بجوارك لأساندك" ثم أعطاني رقمه وأخبرني أنه لديه شركة لاستيراد الكاميرات، وأنه يمكنني شراء كاميرا حديثة بسعر مخفض أو استبدال العدسة المشروخة بأخرى جديدة وأصلية مجانا، كان عرضًا رائعًا وحمدت الله على ما حدث لأنه جمعني به".

"أخذت الأمور مجراها سريعًا، ولم أنسَ يوم زفافي معه لأودع أهلي بلقاء حار ومباركة لهذا الزواج ووعد منه بأن يستأجر منزلا بدور أرضي وحديقة صغيرة عند الانتقال إلى محل إقامته في محافظة بعيدة عن أهلي"

نظر لي بنفس الابتسامة الثابتة ثم قال: "سننتقل للإقامة في هذا البرج في الطابق الحادى عشر، نظرت إليه بحزن شديد: "ولكن أنت وعدتني بمنزل بحديقة صغيرة ودور أرضي".

"أترغبين أن تعيشي في القاع؟! أنت أميرة والأميرات لا يليق بهن العيش إلا في أبراج عالية" ختم حديثه معي بحزم ممتزج بنفس الابتسامة الساحرة.

كان بالفعل يعاملني كالأميرات في الشهور الأولى للزواج، أغمضت عيني عن حلمى الذي وعدني به، وأغمضت عيني أيضًا عن غطرسته وقسوته على الضعفاء من حوله، حتى في تعامله مع موظفيه أو سكان الحي، كنت دائما أحدث نفسي، أنه يعاملني بحنو فلمَ الانزعاج من معاملته لمن حولي؟ ولم أدرِ أنه مرض سينتشر قريبًا ليصيبني أنا الأخرى، أما عن شرفة غرفتي فجعلتها جزءًا من حلمي البسيط بحديقة صغيرة، لكن تساقطت أوراق أحلامي سريعًا كأوراق الخريف وتزينت عيني لشتاء أثلج الدموع فيها، وجئت أنت يا بنى بالصيف لتذيبها إلى الأبد" .

صمتت ولم تسطع أن تكمل حديثها وانهمرت في البكاء، قبل يدها بحرارة تشاطر ألمها: "أعدك أنني سأعود لأخذك معي وسأحمل قلبك الدافئ في قلبى.. سامحيني يا أمي ولكن إن كنت أنت أردتِ البقاء والتضحية فأنا لا أستطيع".

لقد حدثها كثيرًا عن سلبية تضحياتها وأنها يجب أن تسمع صوتها لمن يقوى على مساندتها، ولطالما حاول أن يساندها لكنه يئس، وهي كما تظن كانت أضعف من أن تتحدث شفاهها عن سطوته وآثار الضرب المحفورة على جسدها، كان قرار هجرته هو تمرد على الوضع، لم يرد أن يصبح ضحية مثلها ووعدها بالبر والوفاء، حتى أن الأمر قد اختلط عليها هل هذا برٌ أم خذلان من فلذة كبدها؟

مر شهر على هجرته ومازالت تحمل كاميرته بين يديها، نظرت إلى المرآة لتدرك كيف ذبلت بانفصاله عنها، أما تلك التجاعيد التي حفرت بعناية سنين عمرها تفضح الكثير من الألم النفسي لكل سنوات زواجها مع والده، لكن خصلات شعرها البيضاء المنسدلة على وجهها مع أحمر شفاه بلون الورد المفضل لديها، كان يحمل لها جمالا من نوع خاص، إنه جمال الخمسينات من العمر.

عاد من العمل ليجد الكاميرا في يديها تحتضنها بقوة وتبكي كالأطفال بحرارة، صرخ غاضبًا بصوت غليظ لتنظر إليه في رهبة ولتقع عيناها على تلك التجاعيد الخبيثة التي تنم عن نرجسية صاحبها، وشعره الأسود الفاحم الذي يفضح فرط صبغة الشعر لرجل تجاوز الستين من العمر.

"إلى متى ستحتفظين بهذه الكاميرا، لقد قرر الانفصال عنا وأنا عند قراري، هذا الولد ليس ابني. ثم أخذ منها الكاميرا بقوة ليركلها بعيدًا

بحذائه اللامع نحو الشرفة، ارتجف جسدها بشدة وانهارت بالبكاء، وخرج غاضبًا ليغلق باب الغرفة عليها.

أما هي فأسرعت إلى الكاميرا لتحتضنها ولتجد أن عدستها قد شرخت، إنهارت بالبكاء حتى تسلل النوم لعينيها، وفي اليوم التالي تعالت أصوات الأذان "الله أكبر.. الله أكبر" معلنة عن حضور صلاة الجمعة.

ارتدى الجلباب الأبيض المكوي بعناية، ووضع عطرا فاح في المكان، ولم ينسَ ارتداء نظارته الشمسية والساعة باهظة الثمن، فقد كان هذا هو يوم التباهي والرياء على سكان الحي.

أسرعت لتنظر إليه من الشرفة لتراه ذاهبًا بخيلاء إلى المسجد المقابل للبرج، وعيناها مليئتان بالدموع وفي يدها العدسة المشروخة للكاميرا، لم تدرِ كيف لعدسة مشروخة في الماضي أن تكون سببًا في دخولها هذا السجن، وعدسة أخرى سببا في وأدها إلى الأبد.

"استوصوا بالنساء خيرا".. هكذا أوصى محمد صلى الله عليه وسلم بالنساء وظل يرددها قبل وفاته، كان خطيب الجمعة مسترسلا ومنفعلا في خطبته حينما دخل هو المسجد مصطحبًا رداء غروره معه، لم ينتبه إلى الخطبة ولا إلى الآيات فقد كانت غطرسته متربعة على عرش قلبه ولم تسمح للرحمة أن تتسلل إليه.

"وَمِنْ أَيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" ختم الخطيب خطبته بهذه الآية الكريمة لإقامة الصلاة. أما هو فوقف بخيلاء بجوار جيرانه ولم يتذكر يومًا أنه أمام القادر سبحانه، وبعد الانتهاء سمع الجميع صوت ارتطام قوي على الأرض، فخرجوا فزعًا، إنها سيدة الشرفة ملقاة على الأرض في دمائها مع إنهيار جزء من سور الشرفة معها.